فلسطين الذاكرة

تتعدد الأجيال والأمكنة والأزمنة وتظل الهوية واحدة

محمد الأسعد

في فبراير من العام 2013، قدّم عددٌ من الباحثين من تخصصاتٍ مختلفة، علماء أنثروبولوجيا واجتماع ومختصون بموضوع الذاكرة الشفهية، في معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية في بير زيت في فلسطين المحتلة، أوراقاً بحثية للمناقشة في منتدى عنوانه" اللاجئون الفلسطينيون: أجيال مختلفة والهوية واحدة". تناولت هذه الأوراق موضوعاتٍ مهمّة محورها الاختلافات بين أجيال اللاجئين الفلسطينيين، سواء كان سببها تعدّد أماكن اللجوء والأزمنة، أو اختلاف تعامل البيئات السياسية التي يعيشون فيها معهم، أواختلاف مواطنهم الأصلية التي اقتلعهم منها الإرهاب الاستعماري/الاستيطاني الصهيوني. وخلص المتناقشون إلى نتيجة مهمة هي فرادة وضعية اللاجئين الفلسطينيين واختلافها عن أي حالة لجوء أخرى. ولا تكمن هذه الفرادة في إشارة بعضهم إلى أنهم يشكلون مجموعة اللاجئين الأكبر عدداً على سطح الكرة الأرضية فقط، بل ترجع هذه الفرادة أيضاً إلى عاملين: الأول القوى التي تسببت بتشريدهم الوحشي؛ الحركة الصهيونية بجذورها الأيديولوجية الأوروبية المنشأ وممارساتها، والعامل الثاني هو مقاومة الفلسطينيين المستمرة والعنيدة منذ 138 سنة لهذه القوى الاستعمارية، ومواجهة مختلف استراتيجياتها السياسية، والإصرار على حق العودة، هذه المقاومة التي لم تتوقف منذ أن هبط أوائل المستعمرين القادمين من أوروبا الشرقية على الشاطئ الفلسطيني وأقاموا مستعمرة أطلقوا عليها اسم "بتاح تقفا" في العام 1881، وحتى اليوم.

وتضيف أبحاث هذا المنتدى فرادة ثالثة بالغة الأهمية؛ فبعد دراسة وضعية اللاجئين الفلسطينيين داخل وخارج المخيمات، وفي مختلف أنحاء العالم، تصل إلى أنهم بعد ستة عقود من حياتهم في المنفى، وتعدّد المنافي وتباعدها، وتقطع الأزمنة، مازالوا يشتركون بخصائص جامعة، تمنحهم هوية واحدة قضيتها واحدة، مهما حملوا من جنسيات أجنبية أو عربية، أو بعبارة مختصرة؛ هم يعرّفون أنفسهم كفلسطينيين في المقام الأول.

وفي وقت أقرب عهداً يرجع إلى العام 2015، صدر كتابٌ هو الأول من نوعه في اللغة البرتغالية أعده وحرّر دراساته "د. ليوناردو سكيكت"، من مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة ريودي جانيرو الاتحادية في البرازيل، يتناول موضوع اللاجئين الفلسطينيين أيضا تحت عنوان "بين العالمين القديم والجديد: الشتات الفلسطيني من الشرق الأوسط إلى أمريكا اللاتينية". وتُظهر هذه الدراسات، وبعضها مترجمٌ عن اللغة الإنكليزية، جانبين بالغي الأهمية فيما يتعلق بالهوية الفلسطينية الواحدة العصيّة على الامحاء، الأول هو التأكيد على السمة الفلسطينية البارزة في فهم هؤلاء اللاجئين لأنفسهم على الرغم من تنوع تجاربهم تنوعاً كبيراً، بحيث يمكن أن يُقرأ الكتاب، كما يقول محرّره، كدحض لمقولة واحدة من أوائل المستعمرين الصهاينة القادمين من أوكرانيا هي "جولدا مائير"، زعمت أن "لا وجود لشيء اسمه الشعب الفلسطيني". والثاني هو لفت الانتباه إلى الطرق التي أصبحت فيها صفة الفلسطيني مفتوحة للجدل وإعادة التفسير.

وبين هذين الجانبين تسري عبر هذه الدراسات المكرسة للفلسطينيين، في الشرق الأوسط بخاصة، موضوعة ما أصطلح على تسميتها باسم "تعذر رؤية وجود الفلسطينيين" أو "تحويلهم إلى شعب غير مرئي" (Invisibilization) أو محوهم، ليس فقط بالمعنى الذي ذهب إليه المؤرخ "إيلان بابيه"، الألماني المهاجر إلى فلسطين ثم المغادر إلى بريطانيا، حين رأى في سرقة ونهب الكتب والمخطوطات والوثائق الفلسطينية التي مارسها الصهاينة محاولة "لمحو الرواية الفلسطينية"، بل بالمعنى الذي ذهبت إليه أيضاً، وهو المعنى الأكثر دلالة، الأنثروبولوجية والمختصة بدراسات الذاكرة الشفهية "د. روزماري صايغ" في مقالتها التي تصدرت هذا الكتاب، وعنوانها "تحويل الفلسطينيين إلى أناس غير مرئيين: مشروع استعماري".

تقول د. روزماري " لا يمكننا فهم تعرض الفلسطينيين للمحو كشعب، أو تحويلهم إلى أناس غير مرئيين، بتناول القضية الفلسطينية على خلفية ما تسمى المحرقة النازية، أو كنتيجة لنزاع حول أرض مقدسة في نظر المسلمين والمسيحيين واليهود، بل بالنظر إليها كتطبيق آخر لاستراتيجيات الاستعمار التي نشأت مع الإسبان والبرتغاليين في القرن السادس عشر، ثم تابعتها القوى الأوروبية منذ ذلك الوقت". ومن هذا المنظور تجد تطابقاً بين تبرير الإسبان استعمارهم للأمريكيتين بالزعم أن سكانهما الأصليين برابرة وعبيد بطبيعتهم، وبين ميل الصهاينة الأوائل إلى تبرير اغتصاب فلسطين بإشاعة أن سكانها الأصليين بدائيين وغير متحضرين، ولا قدرة لديهم على أن يكونوا منتجين بمعايير الاقتصاد الحديث.

وتتناول "د. إلنا فيلدمن"، أستاذة الأنثروبولوجيا والقضايا الدولية المساعدة في جامعة جورج واشنطن، الوسائل التي حاول بها اللاجئون الفلسطينيون أن يجعلوا أنفسهم مرئيين، باستخدام ما لديهم من مصادر لرواية تواريخهم وذكرياتهم، والمطالبة بالاعتراف بهم كشعب. ورأت في بعض الممارسات، مثل الاحتفاظ بمفاتيح البيوت ورفعها في المظاهرات، ترجمة بصرية للأمل ومطلب العودة، وفي رفع الأعلام الفلسطينية تعبيراً بصرياً عن المطالبة برؤيتهم كشعب. وتضيف "إنهم بإظهارهم لأنفسهم بهذه الوسائل وغيرها يرفضون أن يُصنّفوا وأن يتم امتصاصهم تحت مسمى "اللاجئين" العام، ويطالبون بدلا من ذلك بالاعتراف بهم كلاجئين فلسطينيين، كأفراد في جماعة قومية مميزة، لأن تحول شخص ما إلى كائن غير مرئي لا يعني، حسب أستاذ الفلسفة الألماني "آكسلهونيت"، أنه لم يعد مُدرَكاً أو مُتصوَّراً، بل القول إنه معروف، ولكن مع عدم الاعتراف بوجوده. فيعامل كشخص حاضر مادياً ولكنه يفتقر إلى خصائص الكائن الاجتماعي، أي المنتمي إلى جماعة تمنحه هوية أكبر من هويته الفردية (Social Validity).

وفي هذا السياق ذاته وصفت عالمة الاجتماع "د.أناهيد الحردان" في مقالتها المترجمة عن الإنكليزية إلى البرتغالية في هذا الكتاب تحت عنوان "حركة حق العودة: بناء ثقافة العودة واستنفار الذكريات من أجل العودة"، الإستراتيجيات التي اتبعها الفلسطينيون في سورية لضمان أن تمنح الأجيالُ الأصغر سناً حقَّ العودة الأهمية التي يستحقها. وشرحت كيف أن هذه الحركة ظهرت كرد فعل على اتفاقيات أوسلو وما مثلته من تهديد لحقّ اللاجئين الفلسطينيين المعترف به قانونياً في العودة إلى الأرض التي شُرّدوا منها. أي محاولة إفقادهم لصفتهم الجامعة كمجتمع وشعب، بالمعنى الذي يذهب إليه آكسلهونيت، ومحو طابع قضيتهم السياسي، ومعاملتهم كمجرد مجموعة "لاجئين" بلا ملمح محدد تحتاج إلى طعام وكساء ومأوى.

حركة حق العودة هذه إذاً، انطلقت لتعزيز ثقافة العودة ومقاومة نسيان اللاجئين لهويتهم الفلسطينية، والتأكيد على وحدتها، وعلى شرعية مطالبهم الوطنية، بتجميع ونشر ذكريات وتواريخ الفلسطينيين الشفهية من كبار السن الذي عاشوا نكبة العام 1948. وحسناً فعلت الباحثة حين أطلقت على رواة الأيام الفلسطينية هؤلاء، رجالا ونساءً، قبل وخلال النكبة وما بعدها، تسمية "حراس الذاكرة"،لأن روايات هؤلاء الحراس في أوساط العائلات الفلسطينية هي التي عملت على إبقاء فلسطين حية في الضمير الفلسطيني والعربي والإنساني أيضاً، بل وساهمت في إعادة تشكيل المجتمعات الفلسطينية التي تم تدميرها في العام 1948 في أماكن اللجوء العربية والأجنبية على حد سواء، وفي ظلّها وبتأثير منها بدأت رواياتُ الجيل الثاني والثالث اللاحقة تعيد تشكيل

مجتمعاتها مجدداً في هذه الأيام التي تكاد تتكرر فيها نكبة الماضي على نطاق أوسع بتدمير المجتمعات والتجمعات الفلسطينية، بدءاً من مخيماتهم في لبنان، فمساكنهم في العراق، وصولا إلى مخيماتهم في سورية.

* * *

تفتح هذه المقالة الأخيرة المجالَ واسعاً للانتقال من مهمّة الوصف التي وجدنا أنها تغلب على الدراسات المذكورة آنفاً، مع تقديرنا بالطبع للكشوفات التي توصلت إليها، وتركيزها على أوضاع الفلسطينيين السياسية والاقتصادية وطموحاتهم ومنجزاتهم الثقافية، إلى مهمة التعليل، أي شرح الأسباب التي تقف وراء وحدة الهويّة على الرغم من اختلاف الأجيال، وتنوع البيئات التي عاشوا فيها، والأكثر أهمية على الرغم من حرب إبادة متواصلة استهدفت وجود اللاجئين تحديداً في أعقاب النكبة مباشرة، وتواصلت بطرق مختلفة، معلنة أحياناً وخفية في أغلب الأحيان.

إن بقاء فلسطين واقعاً حياً، وليس كذاكرة فقط، ممثلة بأجيال تقاوم جيلا بعد جيل، سيظل أشبه بمعجزة لا تفسير لها إن لم نأخذ في اعتبارنا ما يمكن أن نسميه الصفحات المجهولة من تاريخ هذا الشعب، ومنها ما تعرض له من حروب تنوعت وسائلها بين تفجير أسواق ومباني وقتل أطفاله ونسائه ورجاله في قراه العزلاء، وصولا إلى شن أول حرب جرثومية عليه تحدث في تاريخ منطقة الشرق الأوسط كما ورد في مقابلة مع الصهيوني العراقي اليهودي السابق "نعيم خلصجي" الذي اصطنع لنفسه اسم "نعيم جلعادي"، قبل أن يغادر فلسطين ويعيش ويتوفى في نيويورك، أجراه "جون ماهوني" مدير صحيفة "الرابطة" التي تصدرها منظمة "أمريكيون من أجل فهم الشرق الأوسط" (16 مارس 1998). جاء في هذه المقابلة استناداً إلى معلومات نشرت لأول مرة في العام 1993 في صحيفة إسرائيلية أن موشيه دايان أمر في العام 1948 بإزالة بيوت القرويين الفلسطينيين بالجرافات وتسميم مياه الآبار حتى لا يتمكن أهالي هذه القرى من العودة إليها. ويضيف إلى ذلك تأكيده على أن أحد أسباب سقوط عكا بأيدي عصابات الهاجانا كان بسبب تلويثها لمياه نبع الكابري الذي يمد المدينة بالمياه بجراثيم التيفوس والزحار.

وفي مقابل ذلك، إن لم نأخذ في اعتبارنا الدور الذي لعبته العائلة الفلسطينية، النواة التي تماسكت على الرغم من التشتت وتقطع السبل بين أفرادها، وامتداداتها الأكبر، في الحفاظ على الذاكرة وتناقلها من جيل إلى آخر، ومن بقعة جغرافية إلى أخرى، ودور الرواة الأوائل المجهولون الذي بدأوا بإقامة الروابط بين تجمعاتِ شعبٍ توزع بين المنافي، وفي بيئات مختلفة تعرضت فيها جموعه المشردة لصنوف من التنكيل بسبب الجوع والأمراض والمبيت في العراء في أول شتاء يمرّ على اللاجئين الفلسطينيين في العام 1948، وهم تائهون في الوديان والسهول الجرداء. وكما روى بعض من حراس الذاكرة للباحثة د. الحردان، كان تعبير "ماتت العالم أو الدنيا" تعبيراً دارجاً يصف بإيجاز الموت الذي اجتاح جموعهم في وادي الرقاد ووادي التين، على سبيل المثال، في هضبة الجولان السورية (الفلسطينيون في سورية: ذكريات مجتمعات ممزقة، ص 131، الطبعة الإنكليزية، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، 2016).

هذان الجانبان المتعارضان؛ القتل والتشريد والموت الجماعي في العراء من جانب، والإصرار على البقاء والتجمع وإحياء الأجيال الفلسطينية المتوالية كمواقع "انتماء اجتماعية"، حسب مفهوم عالم الاجتماع "كارل مانهايم"، تحتضن جماعات متقاربة عمرياً ومنغرسة في صيرورة اجتماعية/تاريخية، تستوجب انتقالا متواصلاً لما سماه "تراثاً ثقافياً متراكماً" من جانب آخر، يمكن أن ينظر إليهما في غير الحالة الفلسطينية الفريدة على أنهما قطبان من المنطقي أن يتغلب فيهما الموت على الحياة، ولكن هاهنا يبرز دورُ القوى الكامنة الحيويّة في الذكريات التي أنتجتها التجارب التاريخية المشتركة بين مختلف الجماعات الفلسطينية، على اعتبار أن المنافي أحدثت تشظياً في ما كان مجتمعاً واحداً. فكيف تسنى إذاً لمجتمعات ما بعد النكبة أن تتبلور وتنهض وتباشر المقاومة وتنقل النار من جيل إلى جيل على حد تعبير الشاعر "مظفر النواب"، وتتحدى المقولة الصهيونية الشائعة "الكبار يموتون والصغار ينسون"؟ أو بعبارة محدّدة أكثر؛ ماهي العناصر الفاعلة التي جعلت هذا الشعب يستعصي على الفناء على الرغم من انقضاض الغرب الاستعماري وحكام مستعمراته المحيطة بفلسطين عليه؟

هاهنا ثلاثة أبعاد علينا أن نأخذها في اعتبارنا معاً، الأول بُعد العائلة الذي ألمحنا إليه، والثاني الرواة، والثالث بعد الجماعة التي لم يلمّ المخيم وحده شتاتها، بل ساهم في استعادتها للروابط، سواء كانت رابطة العائلة الكبيرة أو الرابطة التي تجمع أهل القرية الواحدة أينما حل شتاتها، في بلد عربي أو غربي. ويحتل موضوع العائلة منذ زمن مكانة مركزية في دراسات الباحثين. وبعد العام 2007، لم يعد هذا الموضوع مجالا مقصوراً على التاريخ الشفوي، بل أصبح مجالا لدراسات ميدانية تتفاوت في أهمية ما تكشف عنه بتفاوت مناهج الباحثين. فمنهم من يأخذ مفهوم العائلة بمعنى تلك التي

تحظى بنفوذ مالي أو سياسي، ومنهم من يميز بين ما تسمى العائلة الكبيرة التقليدية والعائلة الصغيرة النواة في الشتات التي يعتبرها نتاج انهيار التشكيلة الاقتصادية/ الاجتماعية التي كانت تسندها في فلسطين.

ما لاحظناه أن الدراسات الميدانية القائمة على المقابلات الشخصية، بما تتضمنه من حوارات ونقاشات تمتد لساعات بين الباحث وبين الذي يجري المقابلة معهم، وتشمل أحياناً أكثر من فرد من أفراد العائلة، بل وحتى الجيران، هي الدراسات الأكثر كشفاً وتنويراً لوضعية العائلة الفلسطينية والدور الذي كان ويستمر لها في استثمار واستنفار قوى الذكريات الكامنة وتناقلها سواء بين أفراد العائلة الواحدة أو بينها وبين العائلات القريبة والبعيدة، وبالتالي نقل التراث الثقافي والتجارب التاريخية من جيل إلى آخر. وتحضر هنا في الذهن أبرز دراسات د. روز ماري صايغ الصادرة بالإنكليزية (الفلسطينيون: من فلاحين إلى ثوريين، 1979؛ والكثير.. الكثير من الأعداء: التجربة الفلسطينية في لبنان، 1994) ودراسة د. أناهيد الحردان المشار إليها آنفاً، كنموذجين دالين على أبحاث أعمق بما لا يقاس وأقرب إلى الأعماق من دراسات تقوم على إعداد استبيانات تتضمن أسئلة وتوزيعها على عينة مختارة يطلب من أفرادها تسجيل أجوبتهم كتابة، مثلما فعل د. باسم سرحان في دراسته "تحولات الأسرة الفلسطينية في الشتات، 2005".

ولا ينفصل دور الرواة عن دور العائلة، لأن المكان المعتاد لسرد الذكريات أو تذاكر أحداث الماضي، أو نقل الأخبار، في مجتمعات اللاجئين الفلسطينيين كان مكانه المفضل والطبيعي بيت العائلة، فهو مكان اللقاءات والزيارات والمناسبات العائلية. ولهذا لم تنتظر العائلة الفلسطينية مجيء الكتاب والسياسيين لتبدأ بجمع شتات الوطن برواية الذكريات والتواريخ وإحياء فلسطين بهذه الطريقة العفوية والبسيطة، أي لتبدأ مسيرة بناء تجمعات مجتمع من لا شيء سوى ذكرى الفقدان.

الصورة الباقية في الذهن من أيام الطفولة، بالنسبة لي على الأقل، هي صورة أقارب يحلون ضيوفاً في الخمسينيات على بيت عائلتنا في البصرة العراقية في طريقهم إلى الكويت، فيقضون ليلتهم ساهرين في انتظار موعد رحيلهم، وخلال هذه السهرة يستمع أفراد العائلة صغاراً وكباراً لما يرويه هؤلاء القادمون عادة إما من الأردن أو سورية أو لبنان من قصص، تمتد من "أيام البلاد" حتى الوقت الراهن آنذاك، فنسمع أخباراً عن الذي ظلوا هناك في فلسطين، وعن الذين تشردوا وسكنوا في مخيم "الجلزون" أو "الفارعة" أو "عين الحلوة" أو "الوحدات" أو "قلعة بصرى الشام" أو "اليرموك"، وتتوالى أخبار الأحياء والأموات، وأخبار الزيجات بل وحتى الخلافات، ويتبادل الساهرون الآراء في ما استجدّ في هذا البلد أو ذاك من أحداث سياسية أو اجتماعية،

ولا ينسون بالطبع نقل ما يقال عن خيانات حدثت في العام 1948؛ تقاعس جيوش عربية وقفت تتفرج على قرى تُستباح، وجيوشٍ أخرى استبسلت في المعارك، وتحدّى قادتها أوامر ملوكهم وقاتلوا إلى جانب الفلسطينيين. ويتردّد اسم الضابط العراقي "عمر علي" الذي أذاق الصهاينة الويل في منطقة عملياته في جنين.

ويصغي الضيوفُ من جانبهم لأفراد عائلتنا الذين يكونون على رأس المستقبلين عادة، الأب والأم والإخوة والأخوات، ومن يكون حاضراً من الجيران الذين لا يتركون مناسبة مثل هذه تفوتهم، ويسألون أيضاً عن بعض ممن سمعوا أنه جاء إلى العراق، وبلغهم أنه سكن بغداد أو الموصل أو البصرة. ونلمح نحن الصغار في وجوه الكبار توقاً للمزيد من الأخبار والقصص، وكأنهم يستحضرون الوطن الغائب باستحضار أسماء الأماكن والأشخاص وأيام الحصاد وأيام الدراسة.. ولا يرتوون. وحين كانت تمرّ بعض الكلمات التي لانفهم معناها، نسأل الأم أو الأخت همساً، ويأتي الجواب همساً أيضاً.

هؤلاء الضيوف العابرون، وقد مرّ بنا الكثيرون منهم، كانت تغيب أخبارهم كأنما تمحوهم الصحراء التي كنا نراهم يأخذون أهبتهم لاقتحامها في تلك الليالي كما فعل أبطال رواية غسان كنفاني، "رجال في الشمس"، والتي سنقرأها بعد سنوات طويلة فتذكرنا بتلك الأيام وبالضيوف العابرين، فنقول؛ إذاً، هؤلاء هم الذين كتب عنهم غسان، وهؤلاء هم الذين مرّوا بنا وذابوا في أفق الماضي، ماضينا وماضي فلسطين، وماضي هذه الأرض العربية التي التهمتهم كما تلتهم الغيلان أطفال الحكايات الضائعين.. وهؤلاء هم من أيقظوا فينا الوطن.

* * *

سأنتقل الآن إلى رواةٍ من نوع آخر لم ترد أخبارُهم إلاّ في كتب قليلة منسية، أذكر منها مجموعة قصصية للكاتب والصحافي الفلسطيني "مصطفى أبو لبدة"، أحد أوائل الكتاب الفلسطينيين الذين نشروا أعمالا لهم في مجلة "شعر" الطليعية المعروفة (1957-1970) بجوار "جبرا إبراهيم جبرا" و "توفيق صايغ" و"فدوى طوقان". كان عنوان هذه المجموعة القصصية "العنف والشاي السخن"، وما زلت أتذكر منها مشهداً لا ينسى في قصة حملت عنوان "خذلتهم ريح الشمال"، يودع فيها شاب فلسطيني أمه، طالباً

رضاها، ويتجه غرباً إلى فلسطين، ويتغلغل في تضاريسها، إلى أراضي قريته التي تم احتلالها، ربما ليأتي بشيء مما تركته العائلة حين فرت ليلا فزعة والقذائف تنهال على البيوت والطرقات والمزارع، وتنتشر الكمائن الصهيونية على الطرقات لقتل الهاربين وسرقة ما يحملون من متاع، وربما ليتقصى الأخبار ويعرف أن كان من سبيل إلى العودة في أيام غارت فيها كل الجهات حول الفلسطينيين فلم يعد أحدهم يعرف إلى أين يمضي وما المصير، وهل من عودة إلى البيت والأرض أم غرق في لجّة لا يُعرف لها قرار.

كان هذا الشاب الذي يطلب رضا الأم وقد يعود أو لا يعود، واحد من الذين سيتحدث عنهم"سليم الفحماوي"، راعي الأغنام، كاتب قصة تشرده ولجوئه في داخل وطنه، من إمّ الزينات إلى دالية الكرمل، بعد العام 1948، والمنشورة بعد وفاته تحت عنوان "أحزان الراعي" (2009). هذا الشاب هو أحد الذين كانوا يعودون، لهذا السبب أو ذاك، قادمين من المخيمات في خمسينيات القرن الماضي، مخاطرين بحياتهم. هؤلاء كانوا أول رواة جمعوا شتات هذا الشعب، فحدثوه وحدثوا الساهرين المتجمعين حولهم عما يحدث هناك. عن الذين ولدوا والذين انتقلوا إلى رحمة الله، وعن الذين يقفون طوابير مهانة ومذلة تحت أنظار جنود البادية، ليتسلموا حصصهم من الغذاء أو الكساء بعد أن أصبحوا أبناءً للصليب الأحمر ووكالة الغوث، أو عن بعض ممن روت سميرة عزام أنه اقتحم مخازن المهانة والذل وأحرقها ليوقظ شعباً حولته هذه المؤسسات إلى شبه شعب سائر في نومه (سميرة عزام، الساعة والإنسان، قصص قصيرة، 1963).

وينقل هؤلاء الرواة إلى الجانب الآخر بعد عودتهم أخبار القرويين اللاجئين إلى قرى في الداخل مثل دالية الكرمل وعسفيا والفريديس إلى عائلاتهم في مخيمات الشتات، ينقلون أخبار هؤلاء الذين منعوا حتى من دفن أمواتهم في مقابر قراهم المدمرة، أو الاقتراب من محاصيل حقولهم والزيتون الذي كانوا يملكون.

تنقّل هؤلاء الرواة بين شتات شعب، ونقلوا حكايات شظية منه إلى شظية أخرى، ووصلت رواياتهم إلى مدى أبعد يتجاوز البلدان المحيطة بفلسطين إلى بلدان عربية أخرى. وأن الإنسان ليشعر، وهو يتذكر زياراتهم، إما سعيا لمعرفة مصير أخ أوأمّ أو قريب، أو سعياً لتقصي مصير العائلة الأكبر وامتداداتها، أنهم إنما كانوا يقومون بمهمة مقدسة. وتسنى لي أن أفهم قداسة مهمة تجميع شتات شعب أو الحفاظ على ذاكرته الجمعية، حين وقعت على استعارة جميلة في رواية للكاتب "ماريو بارغاس يوسا" من البيرو، عنوانها "الراوية"، أو الحكواتي إذا ترجمنا العنوان حرفياً، الصادرة في العام 1987.

في هذه الرواية يتجول شعب "ماتشيجنجا" في أعماق غابات الأمازون دائماً على شكل جماعات متفرقة ليحفظ للوجود توازنه، أو حتى لا تسقط الشمس ويختل نظام الأشياء كما تقول إحدى أساطيرهذه الجماعات. ولكن ما يُبقي على وحدة هذا الشعب رواةٌ يتنقلون بين جماعاته المتفرقة ويصلون بحكاياتهم بينها، وبينها وبين تاريخها، وبينها وبين أسلافها. إنهم ينقلون إلى كلِّ جماعة أخبارَ وقصصَ حياة الجماعات المتجوّلة الأخرى. ولتحقيق هذا الهدف، يترحّل الرواةُ أياماً وأسابيع، ويقطعون المسافات الشاسعة ليصلوا إلى جماعات هذا الشعب المتناثرة، فيسهرون مع هذه الجماعة أو تلك قمراً بعد قمر، ثم يواصلون الرحيل إلى جماعة أخرى. ولا يشك أي قارئ لهذه الحكاية أن الرواة يقومون هنا بمهمة مقدسة.

ورواة الشعب الفلسطيني الأوائل الذين وصفتُ، كانوا يقومون بمهمة مماثلة بعفوية بالغة، فكان تجوالهم بين جماعات فقدت وطنها، وتوزعت بين المنافي، ابتكارَ أناس بسطاء استبق مهمات أصحاب النظريات وكتاب الروايات الذين سيأتون فيما بعد. الفرق بين الرواة الأوائل، وغالبيتهم من الفلاحين الذي لم يتلقوا تعليماً نظامياً، وبين من سيأتون فيما بعد، هو أن القصص التي ينقلون، والأخبار التي يذيعون، لم يكن هدفها التسلية، بل وتجاوزت الإمتاع، هذا إن كان لروايات من هذا النوع أن تكون ممتعة، إلى شيء جوهري، إلى شيء يقوم عليه وجود هؤلاء اللاجئين؛ أساس وجود من نوع ما لا تتوازن وتنتظم الأشياء من دونه، ذلك هو معنى حياة الفلسطيني الذي أخرجه منه الاستعمار/الاستيطاني، والحرمان من الوطن، والجماعة التي تمنح الفرد هويته الأكبر والأثمن من هوية حصاة أو حبة رمل ملقاة على جانب طريق أو شاطئ. وكأنهم كانوا يعودون برواياتهم إلى ملحهم ومائهم مجدداً.

لهذا حرص رواتنا، أو حراس الذاكرة، نساءً ورجالا، جداتٍ وأجداداً، آباءاً وأمهات، على رواية الذكريات، وتذكير الصغار بما فقدوا، بالغائبين، أقرباء كانوا أو معارف أو جيران، الأحياء منهم والأموات، مع تشديد على تفصيل التفاصيل حتى وإن تعلّقت بموت الأرنبة أو جفاف البئر أو شدة برد ذلك الشتاء. ربما لهذا السبب تضاءلت في قصص الأمهات القصص الخرافية، وهيمنت حكاياتُ الأيام الواقعية في البلاد بأحزانها وأفراحها، الواقعي منها وما منحته المخيلة والرغبة والأمل أبعاداً أسطورية، كأن تعود أمٌّ لتأخذ جثة ابنها بعد ستة أيام من إصابته بخمسين رصاصة في مجزرة من مجازر الصهاينة، فيعود إلى الحياة، ويعيش ويتزوج ويتوفى في مخيم من المخيمات، وتقول واحدة من حراس الذاكرة أنها علمت بحكاية هذا الرجل لأنها جاورت أهله في المخيم.

كان الواقعُ الفلسطيني في الأيام الأولى التي أعقبت النكبة مباشرة يتجلّى في هذا الفعل البسيط؛ رواية حكاية أو ذكرى أو تاريخ. كانت الرواية إعلان حياة عن نفسها، وكانت

الذاكرة مجالا مغناطيسياً لتجميع ما تقطّع من علاقاتٍ وروابطَ بين الجماعات التي تفرّقت. وعبّرت حاجةُ الشعب إلى ترميم ذاكرته عن نفسها بالتجمّع، والبقاء على مقربة من فلسطين ولو بالحكاية، وهي الوسيلة الوحيدة الممكنة في ظلّ الاحتجاز والقمع والمنع من التنقل والسفر، لاختراق المسافات بين الجماعات، ووصل ما تقطع من أزمنة وأمكنة. وكان هذا الواقع بحاجة إلى أن يحفظ للرواية قداستها؛ فحارس الذاكرة، سواء كان امرأة أو رجلا، لم يكن ينقذ رواية أو قصة أو ذكرى بل كان يستنقذ شعباً من غياهب النسيان.

* * *

فما الذي يعنيه أن تُروى حكاية، سواء كان موضوعها تاريخاً أو ذكريات، في سياق الحالة الفلسطينية الفريدة الموصوفة في منتدى معهد إبراهيم أبو لغد في بير زيت، أوّلاً بسبب طبيعة القوى الوحشية التي اقتلعت الفلسطينيين من وطنهم وحولتهم إلى "غير مرئيين"،أو "تتعذر رؤيتهم، في نظر العالم، وثانياً بسبب مقاومتهم المميزة بتواصلهاجيلا بعد جيل؟

المعنى الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو التحرير، تحريرُ الوعي والمخيلة من شتى الصور المزروعة، سواء زرعها الخوف أوالعنف أوالوحدة أوالاضطهاد، أو زرعتها أوهامٌ شخصية مصدرها الذات أو ذوات الآخرين، في ذهن الإنسان اللاجئ المحكوم بالحرمان من وطن، وبشظف عيش ممضٍ وآفاق مستقبل مجهول. ويأتي المعنى الثاني بعد تحرر الوعي والمخيلة، ويتجسّد لاحقاً، أو بالترافق مع فعل التحرر، في فعل مقاومة الحجب والتغييب، ليس عن نظر العالم فقط، بل وعن وعي اللاجئ ذاته أيضاً.

ما ذهبت إليه د. روز ماري صايغ من أن تحويل الفلسطينيين إلى لا مرئيين هو مشروع استعماري يمت بصلة واضحة إلى الاستراتيجية المبتكرة على يد الإسبان والبرتغاليين في القرن السادس عشر، وهي ذاتها التي واصلتها القوى الأوروبية حتى اليوم، تشخيص دقيق يتجاوز طبقات من التضليل القادم من الخارج والنابع من الجهل الذاتي أحياناً، ولكن قوام هذه الاستراتيجية لم يكن مدافع السفن واتهام الشعوب الضحية بالبربرية فقط، بل هجمة ضارية لاحتلال الوعي أو استعماره بتعبير الفنان الفلسطيني ابن القدس "ستيف سابيلا". وكان الخطاب التوراتي أداة رئيسية في هذا الهجوم، ذلك

الذي نعرف أنه اخترق الوعي الغربي أولا على صعيد شعبي واسع النطاق بتأثير "الإيهام عبر مراحل متأخرة من الزمن المسيحي بأن التوراة والإنجيل كتابان متصلان يمثلان نهجاً متكاملاً في النظر إلى أمور الما وراء وكل المسائل التي هي على صلة وثيقة بمآل الإنسان الفرد وصيرورته" بتعبير د. مروان فارس في مقالة "الغزو الفكري الصهيوني في التراث المسيحي" (مجلة الآداب، بيروت، 1982/4/3)، وسعى ثانياً إلى استعمار وعي الآخر غير الغربي عبر اختراق موروثاته أيضاً، أي وعي الشعوب المغلوبة على أمرها التي يتعرض بعضها للاستعباد ويتعرض بعضها للقتل والتشريد كما هو حال الشعب العربي، والفلسطيني منه بخاصة، الذي لم يَسْلمْ موروثه الديني من اختراق القصص التوراتي، سواء باستخدامه في التفسير، أو في اعتباره سجلا يروي تاريخاً موثوقاً به.

لم يكن استخدام الخطاب التوراتي، في تبرير غزو وقتل من يزعم المستعمرون أنهم "كفرة" أو "أغيار" باسم إله أو آلهة، جديداً مع الغزو الصهيوني/الغربي لفلسطين، بل سبق وأن استخدمته قوى غربية ضد بعضها بعضاً، كما في الحملات الإنكليزية على اسكوتلندا وإيرلندا واحتلالهما على سبيل المثال، وكما استخدمه الأوربيون الذي غزوا أراضي قبائل البانتو في جنوبي أفريقيا وما جاورها، ولكن الجديد بالنسبة لفلسطين أنه حمل معه جملة أساطير تداخلت فيها ومعها أساطير محلية أيضاً، على شاكلة "الأرض الموعودة" و "الأرض الخالية" و"القرابة المزعومة" بين العرب واليهود، أو "ما تنبأت به الكتب القديمة"، يضاف إلى ذلك ما روجته استراتيجية الاستعمار من خرافات عن "بيع" الفلسطينيين لأراضيهم لليهود، ولجوئهم إلى الهجرة ليتطفلوا على البلدان العربية المجاورة. وكانت هذه الخرافة الأخيرة من أشد الاتهامات التي واجهت اللاجئين الفلسطينيين المشردين،وهي تتردد على ألسنة بعض العرب، قسوةً ومرارةً كما قال عدد من حراس الذاكرة لأكثر من باحث.

لم تكن مواجهة هذه الأساطير والخرافات السارية في الأوساط الشعبية سهلة في ضوء افتقار اللاجئين الفلسطينيين إلى وسائل كافية ومؤثرة، وقد أخضعتهم حالة التشرد وفقدان البنى الاقتصادية/الاجتماعية قسراً إلى استجداء لقمة العيش وخاصة في سنوات اللجوء الأولى. ولعل أصعب ما يواجه أي شعب في ظل هكذا وضع أن يقع وعيه هو ذاته ضحيةً لاستعمارٍ من هذا النوع، فيفقد ثقته بنفسه، وتضمحل ذاكرته، وتنقطع علاقته بماضيه، ويضاف إلى شتات جماعاته شتات هويته، ولا يعود بعضه يتعرف على بعض، هذا إن لم ينشب صراع بين أشتاته هنا وهناك.

لكل هذه الأسباب كان فعل رواية تواريخ وذكريات الحياة في فلسطين قبل النكبة، واستنفار ذكريات النكبة وما رافقها من أحداث فردية وجماعية، فعلَ تحريرٍ بكل ما

تعنيه هذه الكلمة من معنى؛ تحريرٍ للوعي والمخيلة، وتمهيدٍ لأرضية الفعل المقاوم الذي تحقق ويتحقق بالفعل على أرض فلسطين التاريخية وخارجها بعدة وسائل.

أكثر هذه الوسائل أهمية، بالإضافة إلى ذكريات جيل فلسطين التي رويت في الأوساط العائلية، وتم تسجيلها وبثها بأكثر من أداة إعلامية، وبعد ذكريات الأجيال اللاحقة المبنية عليها، هي الفنون البصرية التي ربما لم يُدرس تأثيرها المحرِّر دراسة وافية حتى الآن كما دُرس تأثير فنون الكتابة مثل الشعر والقصة والمقالة والسير الذاتية، بل حتى لم تدرس لا التواريخ ولا الذكريات الفلسطينية، ولا فنون وآداب الفلسطينيين من زاوية أنها وسائل تحرير للوعي والمخيلة، بقدر ما تم النظر إليها كفنون يجري تقييمها وفق معايير فنية فقط في أفضل الحالات، أو بوصفها تعبيراً عن واقع المقاومة تعمل عمل مرآة عاكسة يقاس نجاحها وفشلها بقدر ما تثير من حماس أو تنشر من صور، أو تبث من قيم جمالية، لا بقدر ما تحرّر من مساحات في وعي الإنسان ومخيلته.

المرة الأولى التي صادفتُ فيها تعبير "استعمار المخيلة" كانت ضمن عنوان مقالة للفنان التشكيلي والمصور "ستيف سابيلا" (1975-) ابن القدس الفلسطيني المنفي في ألمانيا، يصف فيها حالة من الإحباط والهزيمة في العالم العربي، وكيف بدا له آنذاك أن الناس وقعوا في مصيدة، وأُخضعوا لشكل جديد من أشكال سلطة استعمارية لاتسعى إلى احتلال "المكان" والناس مادياً بقدر ما تستهدف غزو مخيلتهم وتقود إلى تشكيل نظام دولي جديد. أو بكلمة مختصرة؛ ماكنا نشهده، كما يقول، هو غزو واستعمار مخيلة، ويصيب هذا النوع من الاستعمار الناس بشلل مادي وفكري في منتهى القسوة، فهو يقيد النمو ويلغي كل فكرة عن الحرية الشخصية.

ويبدو أنني كنتُ متهيئاً لالتقاط دلالة هذا التعبير ومدلوله وإسقاطه على وضعية اللاجئين الفلسطينيين بفعل تجربة بصرية كنت أمرّ بها خلال قراءتي لهذه المقالة؛ وكانت هذه تجربة إعادة قراءة رسوم الفنان اللاجئ "ناجي العلي" ابن قرية "الشجرة" في الجليل الفلسطيني في ضوء تشكل صورة ما بدأ يطلق عليه "الفلسطيني الجديد"، الفلسطيني الموظف كسقّاءٍ وحطابٍ لدى المستعمر الصهيوني كنتيجة ملازمة لاتفاقيات أوسلو. كانت رسوم ناجي الكاريكاتورية، بالسخرية والنقد الأخلاقي والسياسي، وتقديم رواية مختلفة عما هو شائع من روايات، تحرّر المخيلة من استعمار مماثل لما تحدث عنه "سابيلا ."

وقبل ذلك كان كتاب "الرأي العام" للأمريكي "والتر لبمان" (1889-1974) يفتح الطريق أمامي لتدبر الكيفية التي تسيطر فيها الصور المغروسة في أدمغتنا على سلوكنا

وردود أفعالنا. ولنضف إلى هذا السياق نفي أن تكون عقولنا مرآة تعكس تمثيلاتٍ لواقع تتفاوت دقتها بين كمال ونصف كمال وانعدام كمال بالمطلق كما يذهب إلى ذلك الفيلسوف الأمريكي "رتشارد رورتي" (1931-2007)، والتأكيد على أن الصور وليدة مخيلة وذاكرة ووقائع، وليست "تمثيلا" لما هو في الخارج، قل أو نقص أو جاء فائضاً.

وعند نقطة معينة تقاطع مع كل هذه المصادر، ما سماه الفرنسي "جان بودليار" (1929-2007) واقعٌ زائف يحل محل الواقع العميق، ويمحوه، ويصبح "شبه" واقع نحياه ونراه يتوسط بيننا وبين العالم من حولنا. ويلخص هذا قوله " إن المجتمع القائم حالياً هو مجتمع يستهلك صوراً.. يعيش أفراده في قاعة مرايا منشأها اجتماعي من دون أي نقطة مرجعية خارجية. الواقعي لم يعد ما اعتاد أن يكونه".

في كل هذه المصادر المتقاطعة يتخذ استعمار المخيلة عدة وجوه حسب زاوية النظر؛ هو عند "سابيلا" قيدٌ نفسي وفكري تفرضه صور تتشكل، صور هي ليست انعكاسات لواقع بقدر ماهي إنشاءات تساهم في تشكيل عالمنا. اللغة والصورة كما يقول تشتركان في نظام دلالي، أو سيميوطيقي كما يشاع، وليس لهذا النظام صلة مباشرة بما يدعى "العالم الواقعي". هذا العصر يتميز بصور تشكل حياتنا، وتسيطر على إدراكنا للحياة. وهو عند "بودليار" تشكل عالم "أشباه" سمته فقدان الدلالة والمدلول اللذان يعمل كلاهما كصلتي وصل بالمعنى. في عالم الأشباه، حين لايكون لدينا شيء نستطيع المقارنة به أو الإشارة إليه، يمكن القول عندئذ أن كل المراجع يمكن تخيّلها فقط .

ويتضح المقصود باستعمار المخيلة بجلاء أكثر لدى "لبمان" مخترع مصطلح "القوالب الذهنية"، في قوله إننا أسرى الصور المغروسة في عقولنا. وقد فعل خيراً منذ البداية حين اقتطف من كتاب جمهورية افلاطون صورة سجناء الكهف لتفسير نوع الصور الوهمية عن العالم الخارجي التي تتحكم بسلوكنا. فسجناء الكهف حسب افلاطون لايرون إلا ماهو أمامهم لأن أيديهم ورقابهم مقيدة، وتمنعهم السلاسل من إدارة رؤوسهم حتى. وما هو أمامهم يرسمه ضوء نار وراءهم؛ أي أنهم لايرون إلا ظلالهم أو ظلال بعضهم البعض التي يلقيها ضوء النار أمامهم. المغزى هنا أنهم يتحدثون ويسمون الأشياء التي أمامهم فعلا، وهم واثقون تماماً بالصور التي في رؤوسهم. ويمضي "لبمان" إلى مزيد من الإيضاح؛ في كل ردود الأفعال التي يبديها سجناء كهف مثل هذا على العالم من حولهم يبرز عنصر مشترك؛ إن "شبه بيئة"، أو عالم أشباه، يتوسط بينهم وبين عالمهم الواقعي الغائب. ومن هنا يأتي سلوكهم كرد على شبه البيئة هذا. ولكن لأن رد الفعل يكون سلوكاً فالتبعات تفعل فعلها ليس في شبه البيئة بل في العالم الواقعي .

وبالعودة إلى الفلسطيني "سابيلا" في منفاه، نجده يتحدث عن كيف أنه قضى الشطر الأعظم من حياته في القدس المحتلة، حيث عملت المستعمرة المسماة "إسرائيل" على تأكيد نفوذها على الأرض، وعانى من استعمار المخيلة إلى درجة أنه احتاج إلى اقتلاع نفسه من المكان ليعيد السيطرة على مخيلته، أي ليتحرر من القيود النفسية والفكرية. الصورة بالنسبة له هي موضع الصراع، صور تُبنى بإرادة أنظمة وحركات هي ذاتها التي عمل كاريكاتير اللاجئ "ناجي العلي" على تحرير وعي ومخيلة العربي، والفلسطيني بخاصة، من سطوتها، وعلى تشجيع تشكيل مخيلة جديدة. ولكن هذه ليست مهمة سهلة، فالطريق، حسب "سابيلا"، ممتلئ بعقبات بصرية وصدام مع الصور المتشكلة حديثاً. وفي ضوء أن عالما مزدحماً بالصور التي يجهد أصحابها في إحلالها محل أي مرجعية ملموسة، ويتوسع "أرشيفه" الخيالي باستمرار، ويؤثر على إدراكنا للحياة، نتساءل عن مكان هذه المراجع وعن كيفية العثور عليها. وحين تتوسط الصور الخيالية بيننا وبين العالم علينا أن ننقب في هذه الصور الخيالية لنفهم من نحن ومن أين جئنا. وسيكون فهم كيف يعمل "الواقع الجديد" حاسماً .

في هذه المعركة، لم يكن كاريكاتير ناجي العلي للتسلية، بل كان لتحرير المخيلة من الصور التمثيلية، من خيالات كهف افلاطون، كان أداة صراع جاد على جبهة صراع الأفكار لايقل أهمية عن الصراع في الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا الصراع وظف الفنان تقنيات متعددة؛ منها ما هو بصري ومنها ما هو لغوي، لإعادة بناء العلاقة بين الدال والمدلول، بين الاسم والمسمى. أي العلاقة بين الصورة والكلمة وما تدل وتشير إليه وتسميه في الواقع الملموس بالخبرة والتجربة، أعني تجربة الإنسان الفلسطيني بخاصة والإنسان بعامة. ونجد لديه بعضاً من قصص وحكايات جيل فلسطين الأول، وقصصاً يضيفها هو بإيجاد مزاوجة بين حكايات وأقوال موروثة وبين الموقف الراهن في صراع الفلسطيني مع عدوه المستعمر لأرضه.

على سبيل المثال، يرسم فلسطينياً طاعناً في السن يُذكّر فوراً برجال جيل فلسطين الذين كانوا حراساً للذاكرة، وهو يغرس شتلة شجيرة زيتون، فيسأله جندي صهيوني مسلح ساخراً "هل ستعيش لتأكل من ثمرها؟"، فيرد الفلسطيني ببساطة وثقة "زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون".

مثل هذا النهج لا يؤكد ثقة الفلسطيني التي يضعها في أجياله المقبلة فقط، ولا يشير إلى الاعتماد المتبادل بين الأجيال فقط، بل يحرّر الفلسطيني قبل كل شيء من مشاعر اليأس والقنوط التي يمكن أن يشعر بها أمام مستعمر مدجج بالسلاح.

ومثل هذا النهج فعلا مناوئاً لاستعمار الوعي والمخيلة الأخطر من استعمار الأرض، كما رأى "سابيلا"، وكما بدأت تراه قطاعات ثقافية عربية. وهو ما يلخص أفضل تلخيص أكثر خصائص تجربة فنان مثل ناجي العلي أهمية، في مواجهته كما نعرف لأساطير المستعمر الأجنبي والعدو الطبقي أيضاً وإظهار تهافتهما، وتحرير المخيلة الإنسانية من استعمار تصوّرات ومفاهيم هذين العدوين، وخاصة في هذه الأزمنة المظلمة.

وميزة "رواية" هذا الفنان المحرِّرة المختلفة عن ميزة روايات حراس الذاكرة، وحتى روايات الأجيال اللاحقة التي روت عنهم وأضافت، هو أنها رواية مثقفة امتلكت أداة فنية أشد تأثيراً، أي الصورة، أيقونة الفن التي يتفرد بها مهما كان الوسيط الذي يتعامل به، لوحة أو رواية أو مسرحية أو قصيدة. بالصورة يحرّر الفنان البصري وعي ومخيلة اللاجئين الفلسطينيين، ويدفعنا إلى العودة ودراسة تجارب أوائل الرواة العفويين الذين كانوا ينقلون أخبار هذا التجمع إلى ذاك، ومن جاء بعدهم، بل وحتى إعادة دراسة الأدب الفلسطيني شعراً ونثراً، والأدب العربي بشكل عام، في ضوء مفهوم الرواية أو الذكرى المحرِّرة.

قلنا منذ البداية أنه مع اختلاف الأجيال وتعدّدها، بل واختلاف الأمكنة والأزمنة، ظلت هويةُ الفلسطيني الجامعة واحدة، ويبدو أن الحاجة إلى تعليل هذا الذي يبدو شبيهاً بالمعجزة بحاجة إلى استقصاء جوانب عديدة أخرى، لم تكن روايات وذكريات حراس الذاكرة إلا جانباً واحداً منها. وتظل هناك حاجة إلى دراسة كامل المصادر التي استمدّ منها الفلسطيني القدرة على مواجهة الحجب والتغييب، بل والمحو في عصر يقال أنه عصر ثورة المعلومات. ولا نعرف حتى الآن ماهي المصادر التي جعلت رجلا من جيل فلسطين طاعناً في السن يثق ثقة تامة بأنه يزرع لتأكل الأجيال القادمة، وما هو سرّ هذه القدرة المدهشة التي يمتلكها فنان بصري مثل ناجي العلي على قراءة خريطة الأيام الآتية، هو الذي نشأ وترعرع في مخيم فلسطيني في منطقة حرم فيها الفلسطيني من أبسط حقوقه كإنسان.. ومع ذلك احتضن كل ما يهمّ الإنسان في أي مكان، ورفع فلسطين إلى مكانة القضية التي تعني كل إنسان.

---

* مقالة في كتاب "فلسطين في مرايا الفكر والثقافة والإبداع: التقرير العربي الحادي عشر للتنمية الثقافية" الجزء الأول، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، 2019.